

عنوان الكتاب : حياة محمد

المؤلف : محمد حسين هيكل

سنة النشر : ١٩٣٥

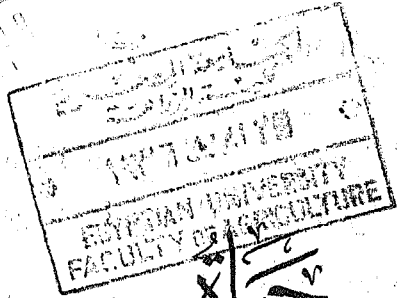
رقم العهدة : ٧١١١

الـ ACC : ٩٨٩٣

عدد الصفحات : ٥٥٥

رقم الفيلم : ١٥

C 29, 9



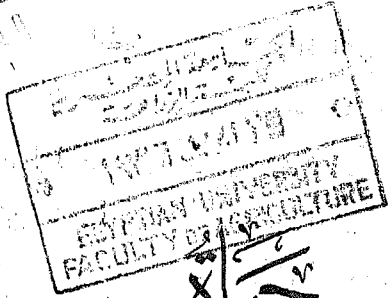
حياة  
محمد

تلميح

وقع خطأ في الصفحة ٣١ في تحديد شبه جزيرة العرب فذكر أن  
الغرب الحيرة ودجلة والفرات وخليج فارس وأن الشرق بحر القلزم (البحر  
الأحمر) وصحته العكس .  
فالغرب بحر القلزم . والشرق الحيرة ودجلة والفرات وخليج فارس .

C 49, 9

C 49  
C 49



حياة  
حسبك

- A.C / 9894

- 85.4 / C49

- VIII / VIII

...

...

...

...

...

...

...

...

## تعريف بالكتاب

بقلم حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر

الشيخ محمد مصطفى المراغى

منذ وُجد الانسان على الأرض وهو مشوق إلى تعرف ما فى الكون المحيط به من سنن وخصائص . وكلما أمعن فى المعرفة ظهرت له عظمة الكون أكثر من ذى قبل ، وظهر له ضعفه وتضائل غروره . ونبى الاسلام صلوات الله عليه شبيه بالوجود . فقد جت العلماء منذ أشرقت الأرض بنوره يتلستون نواحي العظمة الانسانية فيه ، ويتلستون مظاهر أسماء الله جلت قدرته فى عقله وخلقه وعلمه . ومع أنهم استطاعوا الوصول إلى شىء من المعرفة ، فقد فاتهم حتى الآن كمال المعرفة ؛ وأمامهم جهاد طويل وبعث شاسع وطريق لا نهاية له .

والنبوة هبة الله لا تُنال بالكسب ؛ لكن حكمة الله وعلمه قاضيان بأن تمنح للمستعد لها ، والقادر على حملها . الله أعلم حيث يجعل رسالته . ومحمد صلى الله عليه وسلم أُعدَّ لأن يحمل الرسالة للعالم أجمعه ، أحمره وأسوده ، إنسه وجنّه ؛ وأُعدَّ لأن يحمل أكمل رسالة وأكمل دين ؛ ولأن يختم به الأنبياء والرسل ؛ وليكون شمس الهداية وحده إلى أن تنفطر السماء وتتكدر النجوم وتبذل الارض غير الارض والسماوات .

عصمة الأنبياء فى التبليغ وأداء أمانة الوحي قضية فرغ العلماء منها ؛ فليس للأنبياء فضل الاختيار فى التبليغ وأداء الأمانة بعد طبعهم بخاتم النبوة واختيارهم لها . وهذا التبليغ نتيجة حتمية للنبوة لا مرد لها . غير أن الوحي لا يلزم الأنبياء فى كل عمل يصدر عنهم وفى كل قول يبدر منهم ؛ فهم عرضة

للخطأ ؛ يمتازون عن سائر البشر بأن الله لا يقرهم على الخطأ بعد صدورده ، ويعاتبهم عليه أحياناً .

امر محمد صلى الله عليه وسلم بأن يبلغ عن ربه ، ولم تبين له الطرق التى يتبعها فى التبليغ وفى حماية الدعوة ، وترك له أن يتصرف بعقله وعلمه وفطنته كما يتصرف غيره من العلماء والعقلاء . وجاء الوحي مفصلاً قاطعاً فى كل ما يخص ذات الاله ووحدته وصفاته وكيفية عبادته ؛ ولم يكن كذلك فيما يخص النظم الاجتماعية للأسرة والقرية والمدنية والدولة منفردة ومرتبطة بغيرها من الدول . فهناك مجال واسع للبحث عن عظمة النبي صلى الله عليه وسلم قبل الوحي ، وهناك مدى فسيح للبحث عن تلك العظمة بعد الوحي ؛ فقد صار مبدعاً عن ربه داعياً اليه ، حامياً لتلك الدعوة ولحرية الداعين ، مدافعاً عنهم ؛ وأصبح حاكم الأمة الاسلامية وقائد حريها ومفتيها وقاضيا ومنظماً جميع الصلوات والروابط فيها ، وبينها وبين غيرها من الأمم . وقد أقام العدل فى ذلك كله ، وألّف بين أمم وطوائف ما كان العقل يسيغ إمكان التأليف بينها ؛ وظهرت الحكمة والرصانة وبعث النظر وكال الفطنة وسرعة الخاطر وقوة الحزم فى كل ما صدر عنه من قول أو فعل ، وتفجرت منه ينابيع العلم والمعرفة ، وينابيع البلاغة التى يطأطأها البلغاء رموسهم أمامها إجلالاً وهيبة ؛ وفارق الدنيا وهو راض عن عمله مرضى عنه من الله ومن المسلمين .

كل هذه النواحي تستحق الدرس والتخصص ، وليس فى مقدور شخص واحد أن يفهما حقهما ، بل ليس فى مكنة شخص واحد أن يوفى على الغاية فى ناحية من هذه النواحي .

وسيرة محمد صلوات الله عليه وعلى آله كسائر سير العظماء أضيف إليها ما ليس منها ، إما عن حب وهوى وحسن قصد ، وإما عن سوء قصد وحقد . غير أنها تمتاز عن سير العظماء جميعهم بأن منها شيئاً كثيراً ضمّه الوحي الالهى

وضمن حفظه القرآن المطهر، وشيئاً كثيراً روى على لسان الحفاظ الثقات من المحدّثين. وعلى هذه الأسس الصحيحة يجب أن تبنى السيرة وأن يستنبط العلماء منها حكمها وأسرارها ودقائقها، وأن تحلل التحليل العليّ النزيه ملاحظاً في ذلك ظروف الوسط وحال البيئته ونواحيها المختلفة من عقائد ونظم وعاد. وقد أخرج الدكتور هيكل للناس كتابه (حياة محمد) في سيرة محمد صلى الله عليه وسلم، ويسر لي أن أطلع على جزء منه قبل إتمام طبعه. والدكتور هيكل معروف لقراء اللغة العربية غنىً بأثاره فيها عن التعريف. وقد درس القانون واطلع على المنطق والفلسفة، ومكنته ظروفه وطبيعة عمله من الاتصال بالثقافة القديمة والثقافة الحديثة وأوفى منها على حظ عظيم، وناظرَ وجادل وهمج ودافع في المعتقدات والآراء وقواعد الاجتماع وفي السياسة وغيرها، فنضج عقله وكمل علمه واتسع اطلاعه وامتد أفقه، فأصبح ينافح عن آرائه بمنطق قوى وحجج باهرة وأسلوب اختص به لا تخفى نسبتبه اليه. بهذه الثقافة وهذه القوة نسج الدكتور كتابه وقال في مقدمته: «لست مع ذلك أحسب أني أوفيت على الغاية من البحث في حياة محمد؛ بل لعلّي أكون أدنى إلى الحق إذا ذكرت أني بدأت هذا البحث في العربية على الطريقة الحديثة. وقد تأخذ القارئ الدهشة إذا ذكرت ما بين دعوة محمد والطريقة العلمية الحديثة من شبه قوى. فهذه الطريقة العلمية تقتضيك إذا أردت بحثاً أن تمحو من نفسك كل رأي وكل عقيدة سابقة في هذا البحث، وأن تبدأ بالملاحظة والتجربة ثم بالموازنة والترتيب ثم بالاستنباط القاسم على هذه المقدمات العلمية. فإذا وصلت إلى نتيجة من ذلك كله كانت نتيجة علمية خاضعة بطبيعة الحال للبحث والتمحيص، ولكنها تظل علمية مالم يثبت البحث العليّ تسرب الخطأ إلى ناحية من نواحيها. وهذه الطريقة العلمية هي أسمى ما وصلت اليه الإنسانية في سبيل تحرير الفكر، وهامى ذى منع ذلك طريقة محمد وأساس دعوته».

أما أن هذه الطريقة طريقة القرآن فذلك حق لا ريب فيه؛ فقد جعل العقل حكماً والبرهان أساس العلم، وعاب التقليد وذمّ المقلدين، وأنّب من يتبع الظن وقال: «إنّ الظنّ لا يُغني من الحقّ شيئاً»، وعاب تقديس ما عليه الآباء، وفرض الدعوة بالحكمة لمن يفقهها. ولم تكن معجزة محمد صلى الله عليه وسلم القاهرة إلا في القرآن وهي معجزة عقلية. وما أبدع قول البوصيري:

لم يمتحننا بما تعيا العقول به حرصاً علينا فلم نرتب ولم نهم  
وأما أن هذه الطريقة حديثة فهذا ما يعتذر عنه. وقد سائر الدكتور غيره من العلماء في هذا. ذلك لأنها طريقة القرآن كما اعترف هو، ولأنها طريقة علماء سلف المسلمين. انظر كتب الكلام ترمهم يقررون أن أول واجب على المكلف معرفة الله، فيقول آخرون: لا. إن أول واجب هو الشك. ثم إنه لا طريق للمعرفة إلا البرهان. وهو وإن كان نوعاً من أنواع القياس إلا أنه يجب أن تكون مقدماته قطعية حسيّة، أو منتهية إلى الحس، أو مدركة بالبداهة، أو معتمدة على التجربة الكاملة أو الاستقراء التام، على ما هو معروف في المنطق. وكل خطأ يتسرب إلى إحدى المقدمات أو إلى شكل التأليف مفسد للبرهان.

وقد جرى الامام الغزالي على الطريقة نفسها. وقد قرر في أحد كتبه أنه جرد نفسه من جميع الآراء ثم فكر، وقدر، ورتب، ووازن، وقرب، وباعد، وعرض الأدلة وهدبها وحللها ثم اهتدى بعد ذلك كله إلى أن الاسلام حق والى ما اهتدى اليه من الآراء. وقد فعل هذا ليجاقى التقليد، وليكون إيمانه إيمان المستفيق المعتمد على الدليل والبرهان؛ ذلك الايمان الذي لا يختلف المسلمون في صحته ونجاة صاحبه. وأنت واجد في كتب الكلام في مواضع كثيرة حكاية تجريد النفس

عما ألفته من العقائد ثم البحث والنظر . فطريق التجريد طريق قديم ، وطريق التجربة والاستقراء طريق قديم ، والتجربة والاستقراء التام وليدا الملاحظة ، فليس هناك جديد عندنا . ولكن هذه الطريقة القديمة بعد أن نسبت في التطبيق العلمي والعمل في الشرق ، وبعد أن فشا التقليد وأهدر العقل ، وبعد أن أبرزها الغربيون في ثوب ناصع وأفادوا منها في العلم والعمل ، رجعنا نأخذها عنهم ونراها طريقة في العلم جديدة .

هذا القانون العلمي في البحث معروف قديماً وحديثاً . والمعرفة سهلة ولكن العمل عسير . ولا يتفاوت الناس كثيراً في معرفة القانون ولكنهم يتفاوتون جداً التفاوت في تطبيق القانون .

تجريد النفس والملاحظة والتجربة والموازنة والاستنباط كلمات سهلة ؛ لكن الانسان الرازح تحت أحمال الوراثة في دمه وعقله ، وأحمال البيئة في البيت والقرية والمدينة والدولة والمدرسة ، وأحمال المعتقدات والمزاج والصحة والمرض والشهوات ، كيف يسهل عليه تطبيق القانون ! . هذا موضع الداء قديماً وحديثاً ؛ وهو سبب تعدد المذاهب والآراء وسبب تبدلها وتنقلها من قطر إلى قطر ومن أمة إلى أمة . والفلسفة والآداب تبدل ثيابها على تعاقب الأجيال كما تبدل النساء أزياءها ، وقل أن تجد فيها شيئاً يصونه حرز أو يقيه حصن ؛ بل سرى التبدل إلى قواعد العلم التي لم تكن طوال الأجيال الماضية موضعاً للشك . ونظرية النسبية اضطرب لها العلماء وسرعان ما قام من يهدمها . والآراء في الأمراض وأسبابها وطرق علاجها وفي التغذية لا تزال مطبوعة للتبدل والتحول . وهكذا إذا أنعمنا النظر لانجد أماناً لما أنتجه العقل وحده إلا ما كان البرهان بشروطه متوافراً فيه . ولكن مانسبة هذه الأشياء التي يتوافر فيها البرهان إلى غيرها مما تمليه الظنون وتسطرم الأوهام ، وتوجه الأذهان المريضة ، وتفرضه السياسة ، ويبدعه العلماء الذين يجدون كل اللذة في مخالفة

غيرهم وإحداث هذه المذاهب والآراء . ولعل هذه الحيرة ستخفف غلواء العلماء المعتمدين بالعقل وحده وتلويهم يوماً من الأيام إلى الدخول في حضي الحق وحصن اليقين ، وهو الوحي الصادق ، وهو القرآن الكريم والسنة الصحيحة المطهرة .

نعود بعد هذا إلى الدكتور هيكل وكتابه :

يقول بعض علماء الكلام إن الاطلاع على علم تشريح الأفلاك وعلم تشريح الانسان يدلّ أوضح الدلالة على شمول العلم الالهي لدقائق الوجود . وأنا أقرر أيضاً أن العلم والكشف عن سنن الوجود وعجائبه سيكون نصير الدين ، وسيقرب إلى العقل الانساني طريق فهم ما كان غامضاً مبهماً ، وما كان فوق طاقة العقل إدراكه من قبل ، مصداقاً لقوله تعالى : « سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ، أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ . » والكهرباء وما نشأ عنها من المخترعات قربت إلى العقل فهم إمكان تحول المادة إلى قوة وتحول القوة إلى مادة . وعلم استحضار الأرواح فسر للناس شيئاً كثيراً مما كانوا فيه يختلفون ، وأعان على فهم مجرد الروح وإمكان انفصالها وفهم ما تستطيعه من السرعة في طي الأبعاد . وقد انتفع الدكتور هيكل بشيء من هذا في تقريب قصة الاسراء فأتى بشيء طريف . ويطول بي القول إذا أنا عرضت لما في كتاب الدكتور هيكل من حسنات . وحسبي أن أتبته إلى تلك الحسنات إجمالاً ، وسيدرك الناس جماله بأنفسهم ويستمتعون بلذة نتاج الفكر تهديه الأسانيد الصحيحة ، ويهديه المنطق الدقيق تسعده الفطرة الصادقة . وسيرون أن الدكتور كان مخلصاً الاخلاص كله للحقيقة ، عامر القلب بما في الوحي المحمدي من هدى ونور ، وبما في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم من جمال وجلال وعظمة وعبرة ، مطمئناً كل الاطمئنان إلى أن هذا الذين المحمدي سينقذ البشر بما هم فيه من

الحيزة ، وينشلهم من ظلمة المادة ، ويصرهم بنور الايمان ، ويوجههم إلى النور الالهي ، فيدركون به سعة رحمته التي وسعت كل شيء ، وعظمة مجده الذي تستبح به السموات والأرض وكل شيء فيهما ، وعزته التي تتضاءل أمامها الموجودات . ألا تراه يقول : « وأذهب أبعده مما تقدم فأقول إن هذا البحث جدير بأن يهدى الانسانية طريقها الى الحضارة الجديدة التي تلتبسها . وإذا كانت نصرانية الغرب تستكبر أن تجسد النور الجديد في الاسلام ورسوله وتلمس هذا النور في « ثيوزوفية الهند » وفي مختلف مذاهب الشرق الأقصى فان رجال هذا الشرق من المسلمين واليهود والنصارى خليقون بان يقوموا بهذه البحوث الجليلة بالنزاهة والانصاف اللذين يكفلان وحدهما الوصول إلى الحق . فالتفكير الاسلامي على أنه تفكير علمي على الطريقة الحديثة في صلة الانسان بالحياة المحيطة به ، وهو من هذه الناحية واقعي بحت ، ينقلب تفكيراً ذاتياً حين يتصل الأمر بصلات الانسان بالسكون وخالق الكون . » . ويقول : « لكن طلائع القضاء على الوثنية التي تتحكم في عالمنا الحاضر وتوجه الحضارة الحاكمة فيه تبدو واضحة لكل من يتتبع سير العالم وأحداثه . فلعل هذه الطلائع تتواتر وتقوى دلالتها إذا انجلت أمام العالم تلك المسائل الروحية بالتخصص لدراسة حياة محمد وتعاليمه وعصره والثورة الروحية التي انتشرت في العالم كأثر من آثاره » .

وهذا الاطمئنان يؤيده الواقع ؛ فان ما يرى الآن من عناية الغرب ببحث آثار الشرق ومن عناية علمائه بدراسة الاسلام من نواحيه المختلفة ودراسة تاريخه وأمه قديماً وحديثاً ، ومن إنصاف بعضهم للنبي صلى الله عليه وسلم ، وما أيدته التجارب من أن الحق لا محالة غالب ؛ كل ذلك يرشدنا إلى أن الاسلام سينشر لواءه على العالم وسيكون أشد الناس عداوة له اليوم هم أشد الناس غيرة عليه ودفاعاً عنه ، وسيكون هؤلاء الغرباء عنه هم أنصاره وأهله .

وكما نصره أول أمره الغرباء عن البيئة التي نشأ فيها ، فسيدنصره آخر الأمر الغرباء عن لغته ووطنه . وقد بدأ غريباً وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء .

وإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم خاتم الانبياء وليس للعالم بعده هادٍ ومرشد ، وكان دينه أكمل دين بنص الوحي القاطع ، فلا يمكن أن يقف أمره على ما هو عليه الآن ، ولا بد أن يمحو نوره نور غيره كما تمحو الشمس أضواء غيرها من الكواكب .

وقد وفق الدكتور في تنسيق الحوادث وربط بعضها ببعض فجاء ، كتابه عقداً منضداً وسلسلة متينة محكمة الحلقات . وقد أبدع في بيان الأسباب والأغراض والحكم بياناً قوياً واضحاً يجعل القارئ مطمئن النفس رضى القلب يستمتع بما يقرأ ويثلج صدره يبرد اليقين ، فيملك عليه أمره ، ويجبره على متابعة القراءة حتى يوفي على آخر ما بيده من البحث .

وفي الكتاب بحوث قيمة ليست من السيرة ولكنها اتصلت بها بسبب الاسباب في بيان أغراضها .

وأختم كلمتي هذه بقول سيد الخلق صلوات الله عليه وعلى آله الأطهار ومن اتبعه : « أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل على غضبك أو تحل على سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بالله » .

١٥ فبراير سنة ١٩٣٥

محمد مصطفى المراغى

# محياته

إِنَّا لِلَّهِ وَمَلَيْكَتِهِ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ  
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا

بقلم

محمد حسين هادي

القاهرة

مطبعة النهضة، شارع نوري باشا (سابقاً شارع الذواوين)

١٣٥٤

## المؤلف

سنة	
١٩٣٣	ثورة الأدب
١٩٣١	والدى
١٩٢٩	تراجم
١٩٢٧	عشرة أيام في السودان
١٩٢٥	في أوقات الفراغ
١٩٢٣ } ١٩٢١ }	جان جاك روسو
١٩١٤	زينب
١٩١٢	دين مصر العام - بالفرنسية



للصحة

الى الذين يتفهمون الحق لوجه الحق وحده

محمد حسين

جميع الحقوق محفوظة

## سجل المراجع

### المراجع العربية

القرآن الكريم  
كتب الحديث

تفسير الطبري جامع البيان في تفسير القرآن، لأبي جعفر محمد بن  
جرير الطبري - (مطبعة بولاق الأميرية سنة ١٣٢٩ هـ)

أسباب النزول، لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري، وبهامشه  
الناسخ والمنسوخ، لأبي القاسم هبة الله بن سلامة أبي النصر (مطبعة هندية  
سنة ١٣١٥ هـ)

زاد المعاد في هدى خير العباد، لشمس الدين أبي عبد الله الدمشقي  
المعروف بابن القيم الجوزي (المطبعة اليمنية بمصر سنة ١٣٢٤ هـ)

سيرة سيدنا محمد رسول الله، المعروفة بسيرة ابن هشام، لأبي محمد  
عبد الملك بن هشام (طبعة جنتجن سنة ١٢٧٤ هـ بعناية المستشرق وستنفد)  
الطبقات الكبرى، لمحمد بن سعد كاتب الواقدي (مطبعة برلين  
سنة ١٣٢٢ - عن بطبعه وتصحيحه إدورڈ سنخو Imp. Brill. Leiden)

المغازي، لأبي عبد الله محمد بن عمر الواقدي (طبعة البعثة المعمدانية  
المسيحية بكلكتا ١٨٥٥ م)

تاريخ الرسل والملوك، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري (مطبعة برلين  
بليدن عنى به بارت وئسلدكي)

المواهب اللدنية بالمنح المحمدية، لأحمد بن محمد بن أبي بكر الخطيب  
القسطلاني (مطبعة شاهين)

الشفاء للقاضي عياض (نسخة خطية بمكتبة جعفر باشا ولي)  
الأصنام للكلبي (مطبعة دار الكتب المصرية)  
الاعلام بأعلام بيت الله الحرام، لقطب الدين النهروالي (مطبعة  
بروكهاوس بليزج)

أخبار مكة، لأبي الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد الأزرقى (مطبعة  
بروكهاوس بليزج Brockhaus, Leipzig)

فجر الاسلام، للأستاذ أحمد أمين

في الأدب الجاهلي، للدكتور طه حسين

قصص الأنبياء، للأستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار

الوحي المحمدي، للسيد محمد رشيد رضا صاحب المنار

تفسير الفاتحة ومشكلات القرآن عن الشيخ محمد عبده

الرحلة الحجازية، لمحمد بك ليبب البتانوني

اليهود في بلاد العرب، للدكتور اسراييل ولفسون

محمد المثل الكامل، للأستاذ محمد أحمد جاد المولى

دائرة معارف القرن العشرين، للسيد محمد فريد وجدى

### المراجع الأجنبية

The Spirit of Islam by SAYED AMEER ALY.

Life of Mahomet by WASHINGTON IRVING.

Life of Mohammad by Sir WILLIAM MUIR.

Heroes and Hero Worship by THOMAS CARLYLE.

La Vie de Mahomet par EMILE DERMENGHEM.

Essai sur l'histoire des Arabes par CAUSSIN DE PERCEVAL.

L'Islam par LAMMENS.

Les Grands Iritiés par EDOUARD SCHURÉ.

Dictionnaire Larousse Art. Mahomet.

Encyclopædia Britannica Art. Mahomet.

Historian's History of the World.

## تقديم الكتاب

محمد عليه الصلاة والسلام :

بهذا الاسم الكريم تنطق ملايين الشفاه ، وله تهتهز ملايين القلوب كل يوم مرات . وهذه الشفاه والقلوب به تنطق وله تهتهز منذ أربعائة وألف سنة إلاخمسین . وبهذا الاسم الكريم سننطق ملايين الشفاه وتهتهز ملايين القلوب إلى يوم الدين . فاذا كان الفجر من كل يوم وتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود ، أهاب المؤذن بالناس إن الصلاة خير من النوم ، ودعاهم إلى السجود لله والصلاة على رسوله ، فاستجاب له الألوف والملايين في مختلف أنحاء المعمورة يحيون بالصلاة رحمة الله وفضله متجليين في مطلع كل نهار . وإذا كانت الظهيرة وزالت الشمس أهاب المؤذن بالناس لصلاة الظهر ، ثم لصلوات العصر فالمغرب فالعشاء . وفي كل واحدة من هذه الصلوات يذكر المسلمون محمداً عبد الله ونبيه ورسوله في ضراعة وخشية وإناابة . وهم فيما بين الصلوات الخمس ما يكادون يسمعون اسمه حتى تجف قلوبهم بذكر الله وبذكر مصطفىاه . كذلك كانوا وكذلك سيكونون ، حتى يظهر الله الدين القيم ويتم نعمته على الناس أجمعين .

ولم يك محمد بحاجة إلى زمان طويل ليظهر دينه ولينتشر في الخافقين لوائه ، فقد أكمل الله للمسلمين دينهم قبيل وفاته ، ويومئذ وضع هو خطة انتشار الدين ؛ فبعث إلى كسرى وإلى هرقل كي يسلموا . ولم تمض خمسون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ \* الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ \* إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ  
نَسْتَعِينُ \* أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ  
\* صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ  
غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ \*

ومائة سنة من بعد ذلك حتى كان علم الإسلام خفياً ما بين الأندلس في غرب أوروبا إلى الهند وإلى التركستان وإلى الصين في شرق آسيا ، وحتى كانت الشام والعراق وفارس وأفغانستان قد أسلمت كلها واصله ما بين بلاد العرب ومملكة ابن السماء ، وكانت مصر وبرقة وتونس والجزائر ومراً كُش قد وصلت ما بين أوروبا وإفريقية ومبعث محمد عليه السلام . ومن يومئذ إلى يومنا هذا بقيت راية الإسلام عالية في هذه الربوع جميعاً خلا الأندلس التي أغارت النصرانية عليها فعدت أهلها وأذاقهم من ألوان الشدة والبأس ، حتى لم يطيقوا صبراً على الحياة فعادوا إلى إفريقية وارتد من ارتد منهم هولاً وفزعا عن دينه ودين أبيه إلى دين العتاة المعديين .

على أن ما خسره الإسلام في الأندلس من غرب أوروبا كان له عنه العوض حين فتح العثمانيون القسطنطينية ومكّنوا لدين محمد فيها ، فاستشرى في البلقان كلها وانبج نوره في روسيا وفي بولونيا وخفقت أعلامه في أضعاف ما كانت تخفيق من أرض أسبانيا . ومن يوم انتشر الإسلام في صولته الأولى إلى يومنا لم يتغلب عليه من الأديان متغلب ، وإن تغلبت على أمه من شدائد الظلم وألوان التحكم ما جعلها أشد بالله إيماناً ، ولحكمه إسلاماً ، وفي رحمته وفي غفرانه آملاً ورجاء .

هذه القوة التي انتشر الإسلام بها سرعان ما جعلته يقف وجهاً لوجه أمام المسيحية وقفة نضال مستميت . لقد تغلب محمد على الوثنية ومحا من بلاد العرب كما محا خلفاؤه الأولون من بلاد الفرس والأفغان وطائفة كبيرة من بلاد الهند أثرها . ولقد تغلب خلفاء محمد على المسيحية في الحيرة واليمن والشام ومصر إلى مهد المسيحية في رومية وفي مدينة قسطنطين . أفتقدر للمسيحية ما قدر للوثنية وهي دين كتاب من الأديان التي أشاد بها محمد ووضع صاحبها في مصاف الأنبياء ؟ وهل قدر لهؤلاء العرب ، عرب البادية الزاحفين من

الإسلام  
والمسيحية

شبه الجزيرة الصحراوية القاحلة ، أن يضعوا أيديهم على حدائق الأندلس ورومية وسائر بلاد المسيحية ؟ الموت ولا هذا ! واستعر القتال بين أتباع عيسى وأتباع محمد قروناً وقروناً متتالية . ولم يقف القتال عند حرب الأسنة والمدافع ، بل انتقل كذلك إلى ميادين الجدل والنضال الكلامي ، جاء المتقاتلون فيها بأسماء محمد وعيسى ، وجعل كل فريق من انتقاص رسول الفريق الآخر وسيلة لتأليب السواد واستثارة حماسة الجماهير وتعصّبها .

على أن الإسلام حال بين المسلمين وبين الخط من مقام عيسى . إنه عبد الله آتاه الكتاب وجعله نبياً وجعله مباركا أينما كان وأوصاه بالصلاة والزكاة ما دام حيا ، وبراً بوالدته ولم يكن جباراً شقياً ، فسلام عليه يوم وُلد ويوم يموت ويوم يُبعث حيا . أمّا المسيحيون فقد جعل الكثيرون منهم التعريض بمحمد ونعته بأوصاف يبرأ منها معروف الرجال ، شفاءً لما في نفوسهم من غل ، واستفزازاً وحفزاً لشموات الناس الدنيا . وبرغم ما وضعت الحروب الصليبية أوزارها منذ مئات السنين فقد ظل تعصب الكنيسة المسيحية ضد محمد على أشده إلى عصور قريبة . ولعله كذلك ما يزال إن لم يك أشد ، وإن يك خفياً يعمل في ظلمات التبشير بالدون من الوسائل . ولم يقف الأمر عند الكنيسة بل تعداها إلى كتاب وفلاسفة في أوروبا وفي أمريكا لم تك تصلهم بالكنيسة صلة تذكر .

ولقد يعجب الانسان أن يظل تعصب المسيحية على الإسلام بهذه الشدة في عصر زعيم أنه عصر النور والعلم ، وأنه لذلك عصر التسامح وسعة الأفق . ويزداد الانسان عجباً حين يذكر المسلمين الأولين وكيف كان اغتباطهم بانتصار المسيحية على الجوسية عظيماً حين اقتحمت جيوش هرقل أرض فارس وكسرت عسكر كسرى . فقد كانت فارس صاحبة النفوذ في جنوب شبه جزيرة العرب منذ طرد كسرى الأحباش من اليمن . ثم إن كسرى

المسلمون  
وعيسى

وجهه جيوشه — في سنة ٦١٤ ميلادية — تحت إمرة قائد من قواده يدعى شهزبراز لغزو الروم ، فظهر عليهم حين التقى بهم بأذرع وبصرى ، أدى الشام إلى أرض العرب ، فقتلهم وخرّب مدائنهم وقطع زيتونهم . وكان العرب وكان أهل مكة يتتبعون أخبار هذه الحرب بتلهف وشغف ، أن كانت القوتان المتناحرتان أكبر ما تعرف أمم الأرض يومئذ ، وأن كانت في جوار بلاد العرب التي تخضع بعض أجزاءها لفارس وتناخم الروم بعض أجزاءها الأخرى . وسميت كفار مكة بالمسيحيين وفرحوا لهزيمتهم ، لأنهم أهل كتاب كالمسلمين ، وحاولوا أن ياصقوا بدينهم عار اندحارهم . أما المسلمون فشق عليهم أمر الروم وهم أهل كتاب مثلهم ، فكان محمد وأصحابه يكرهون أن يظهر المجوس عليهم . وأدى هذا الخلاف بين مسلمي مكة وكفارها إلى تندر الفريقيين وإلى تهكم الكفار بالمسلمين ، حتى أبدى أحدهم من السرور أمام أبي بكر ما غاظه ودفعه إلى أن يقول : لا تعجل بالمسرة ، فسيأخذ الروم بثأرهم . وأبو بكر معروف بالهدوء ووداعة النفس . فلما سمع الكافر قوله أجاهبه متهاكاً : كذبت . فغضب أبو بكر وقال : كذبت أنت يا عدو الله ، وهذا رهان عشر جمال أن ستغلب الروم المجوس قبل عام . وعرف محمد أمر هذا الرهان فنصح إلى أبي بكر أن يزيد في الرهان وأن يطيل المدة . وزاد أبو بكر في الرهان إلى مائة بعير إن هزمت الفرس قبل تسع سنين . وانتصر هرقل سنة ٦٢٥ م وهزم فارس واسترد منها الشام واستعاد الصليب الأكبر وكسب أبو بكر رهانه . وفي النبوة بهذا النصر نزل قوله تعالى في صدر سورة الروم : « أَلَمْ يَغْلِبْ الرُّومُ . فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ . فِي بَضْعِ سِنِينَ . لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ . وَعِنْدَ اللَّهِ لَا يُخْلَفُ اللَّهُ وَعِدَّتُهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » .

كان اغتباط المسلمين يومئذ بانتصار هرقل والنصارى عظيماً ، وظلت صلة الاخاء بين الذين اتبعوا محمداً والذين آمنوا بعيسى عظيمة طوال حياة النبي برغم ما وقع في غير ظرف بين الفريقيين من مجادلة ، على خلاف ما كان بين المسلمين واليهود من تهادن أول الأمر ثم عداوة استحرت وكان لها من الآثار والنتائج الدامية ما أجلى اليهود عن شبه جزيرة العرب جميعاً . ومصدق ذلك قوله تعالى : « لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ » . ثم إنك لترى الدينين يصوران الحياة والخلق صورة تكاد تكون واحدة . وهما في تصوير الانسانية ومبدأ خلقها سواء . خلق الله آدم وحواء وأسكنهما الجنة وأوحى إليهما ألا يسمعا إلى نزع الشيطان فيأ كلا من الشجرة فيخرجهما من الجنة . والشيطان عدوهما الذي أنى أن يسجد لآدم فيما أوحاه الله لمحمد ، والذي أنى أن يقُدّس كلمة الله على رواية كتب النصارى المقدسة . ووسوس الشيطان لحواء وزين لها ، فزينت لآدم فأكلا من شجرة الخلد فبدت لهما سوءاتهما ، فاستغفرا ربهما فبعثهما على الأرض بعض ذريتهم لبعض عدو ، يغيرهم الشيطان فيضل قوم ويقاوم الهلاك آخرون . ولتقوى الانسانية على حرب هذه الغواية بعث الله نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى والنبين ، وبعث مع كل رسول كتاباً مصداقاً لما بين يديه . وكما يقوم في صف الشيطان أنصاره من أرواح الشر ، تقوم الملائكة تسبح بحمد ربهما وتقُدّس له . وهؤلاء وأولئك يتنازعون أسباب الحياة والكون جميعاً حتى يوم البعث ، يوم تُجزى كل نفس بما كسبت ولا يسأل حميم حميماً .

وإنك لتجد في القرآن من ذكر عيسى ومريم وإكرام الله لهما وتقديمه إليهما ما تشعر معه حق الشعور بهذا الاخاء وما يجعلك تتساءل : ما بال

المسلمين والنصارى اذا ظلوا على القرون خصوماً متقاتلين؟ والجواب على سؤالك أن بين الاسلام والنصرانية خلافاً على مسائل أساسية كانت موضع جدل شديد في عهد النبي لم يتعد حدود الجدل إلى العداوة والبغضاء. فالنصرانية تقول بالثلث، والاسلام ينكر كل ما سوى التوحيد أشد إنكار. والنصارى يؤطون عيسى ويلتمسون الدليل على ألوهيته في أنه ليس بشراً كالناس، بل تكلم في المهدي وأوتى من المعجزات ما لم يؤته غيره مما هو من عمل الخالق جل شأنه. وهم كانوا أيام الاسلام الأولى يحتاجون المسلمين في ذلك بالقرآن ويقولون: أو ليس يقر القرآن الذي نزل على محمد رأينا حين يقول: «إذ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ . وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ . قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرًا ، قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ، إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ . وَيَعْلَمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ، وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ ، أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » . فالقرآن قد ذكر إذاً أنه يحيي الموتى ويبرئ الأكمه والأبرص ويخلق من الطين طيراً ويخبر بالغيب . وكل هذه خصائص إلهية ، هذا رأى نصارى عهد النبي الذين كانوا يحاجونه ويجادلونه ويذهبون إلى أن عيسى إله مع الله . ولقد ذهبت طائفة منهم الى تأليه مريم أن ألقى الله اليها بكلمته . وكان أصحاب هذا الرأي من نصارى ذلك العهد يعتبرون مريم ثالث الثلاثة: الأب والابن والروح القدس . ولم يكن أصحاب هذا القول بتأليه عيسى وأمه إلا طائفة من طوائف النصرانية الكثيرة المتفرقة يومئذ شيعاً وأحزاباً .

كان نصارى شبه الجزيرة يجادلون محمداً على اختلاف نحلهم على أساس مذاهبهم . فكانوا يقولون إن المسيح هو الله ، ويقولون هو ولد الله ، ويقولون هو ثالث ثلاثة . وكان القائلون بألوهيته يحتجون بما سبق بيانه . ويحتج القائلون بأنه ولد الله بأنه لم يكن له أب يعلم ، وأنه تكلم في المهدي صديداً مما لم يقع لأحد من بنى آدم . ويحتج القائلون بأنه ثالث ثلاثة بأن الله يقول أمرنا وخلقنا وقضينا ، ولو كان واحداً لقال أمرت وخلقنا وقضيت . وكان محمد يستمع لهم جميعاً ويجادلهم بالتي هي أحسن . وهو لم يكن في جدالهم يشدد شدته في جدال المشركين وعباد الأصنام ، بل كان يحاجتهم بالوحي من طريق المنطق ومن كتبهم وما جاء فيها . فالله تعالى يقول في سورة المائدة: «لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ بْنُ مَرْيَمَ ، قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ بْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ، وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ ، بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ ، يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ » . وقال تعالى: «لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ بْنُ مَرْيَمَ . وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ . لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثُ ثَلَاثَةٍ ، وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » وقال جل شأنه: «وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ . إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ . تَعَلَّمْتُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ، إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ . مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ ، أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ، وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ

شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ ، فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ . إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَاتُّمِرْ عِبَادُكَ ، وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

تقول المسيحية بالتثليث وبأن عيسى ابن الله ، والاسلام ينكر إنكاراً صريحاً باتان أن يكون لله ولد : « قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد » . وما كان لله أن يتخذ ولداً سبحانه . و « إِنْ مَثَلَ عَيْسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » . والاسلام دين توحيد في أشد معاني التوحيد صفاء وقوة ، وفي أشد معاني التوحيد بساطة ووضوحاً . كل ما يمكن أن يلقى ظلالاً على فكرة التوحيد أو صورته ينكره الاسلام ويراه ككفراً . « إِنْ اللَّهُ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونُ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ » . فهما يكن للصورة المسيحية في التثليث من جمال فهي ليست من الحق عند محمد في شيء . إنما الحق هو الله وحده ، وحده لا شريك له ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد . فلا عجب إذاً أن تكون بين محمد ونصارى عهده تلك المجادلة التي هي أحسن ، وأن يؤيد الوحي محمداً بما تلوت من الآيات .

ومسألة أخرى يختلف فيها الاسلام والنصرانية ، وكانت مثار جدل في عهد النبي ، هي مسألة صلب عيسى ليشتري بدمه خطايا الخلق . فالقرآن صريح في نفي أن اليهود قتلوا المسيح أو صلبوه ، إذ يقول في سورة النساء « وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ بْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ . وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ ، مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ، وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا . بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا » .

ولئن كانت فكرة اقتداء المسيح بدمه خطايا إخوته بني الانسان جميلة لاريب ويستحق ما كتب فيها دراسة من نواحيه الشعرية والخلقية والنفسية ،

مسألة صلب  
المسيح

فان المبدأ الذي قرره الاسلام من أن لا تزر وازرة وزر أخرى وأن كل امرئ يوم القيامة مجزى بأعماله إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، يجعل التقريب المنطقي بين العقيدتين غير ممكن ، ويجعل منطلق الاسلام من الدقة بحيث لا تجدى معه محاولات التوفيق مع التناقض الواضح بين فكرة الاقتداء وفكرة الجزاء الذاتي « لَا يَجْزَى وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا » . هل فكر أحد من نصارى يومئذ في هذا الدين الجديد وفي إمكان التوفيق بين فكرة التوحيد فيه وبين ما جاء به عيسى !؟ نعم ، وآمن به منهم كثيرون . لكن الروم الذين اغتبط المسلمون بنصرهم واعتبروه نصراً للأديان الكتابية ، لم يكلف سادتهم أنفسهم مؤونة البحث في الدين الجديد ، ولم يلبثوا أن نظروا للأمر من ناحيته السياسية وأن فكروا فيما يصيب ملكهم إذا تم للدين الجديد الغلب . لذلك بدءوا يأتمرون به وبأهله حتى أرسلوا جيشاً عمر مائة عديته مائة ألف في رواية ومائتا ألف في رواية أخرى ، مما أدى إلى غزوة تبوك ، إنسحب الروم فيها أمام المسلمين الذين خرجوا ومحمد على رأسهم لدفع عدوان لم يكن له ما يسوغه .

من يومئذ وقف المسلمون والنصارى موقف خصومة سياسية حالف النصر فيها المسلمين قروناً متتالية امتدت أمبراطوريتهم أثناءها إلى الأندلس غرباً وإلى الهند والصين شرقاً ، وآمنت أكثر أجزاء هذه الأمبراطورية بالدين الجديد واستقرت فيها لغته العربية . فلما آن لدورة التاريخ أن تدور ، طرد النصارى المسلمين من الأندلس وحاربوهم الحروب الصليبية وأخذوا أنفسهم بالطعن أقبح الطعن على دينهم ونيهم ، طعن كله الفحش والكذب والافتراء . ولقد بلغوا من الطعن على محمد عليه السلام ما بلغ هو في أحاديثه وما بلغ القرآن في الوحي الذي نزل عليه من الارتفاع بعيسى عليه السلام إلى المكان الذي اختاره الله له .

الروم  
والمسلمون

جاء في موسوعة لاروس الفرنسية خلال العرض لآراء كتاب المسيحية إلى النصف الأول من القرن التاسع عشر من نالوا من محمد شر النيل ما يأتي: « بقى محمد مع ذلك ساحراً معنأ في فساد الخلق، لصنَّ نياق، كدنيا لا لم ينجح في الوصول إلى كرسي البابوية، فاخترع ديناً جديداً لينتقم من زملائه، واستولى القصص الخيالي والماجن على سيرته. وسيرة باهومييه (محمد) تكاد تقيم أدياً من هذا النوع. وقصة محمد التي نشر رينو وفرانسيسك ميشيل سنة ١٨٣١ تصور لنا الفكرة التي كانت لدى أهل العصور الوسطى عنه. وفي القرن السابع عشر نظر بيل في تاريخ أبي القرآن نظرة تاريخية، مع ذلك ظلت مقررات ظالمة ثابتة في نفسه عنه. على أنه يعترف بالرغم من ذلك بأن النظام الخلق الذي أقام لا يختلف عن النظام المسيحي لولا القصاص وتعدد الزوجات ».

وإن واحداً من المستشرقين الذين عرضوا حياة محمد بشيء من الانصاف — ذلك هو الكاتب الفرنسي إميل درمينجيم — ليدكر من هذا الذي كتب إخوانه في الدين حين قال: « لما نشبت الحرب بين الاسلام والمسيحية اتسعت هوة الخلف وسوء الفهم بطبيعة الحال وازدادت حدة. ويجب أن يعترف الانسان بأن الغربيين كانوا السابقين الى أشد الخلاف. فمن البيزنطيين من أوقروا الاسلام احتقاراً من غير أن يكلفوا أنفسهم — فيما خلا جان داماسين — مؤونة دراسته. ولم يحارب الكتاب والنظامون مسلمي الأندلس إلا بأسخف المثالب. فقد زعموا محمداً لص نياق، وزعموه مهالكاً على اللهو، وزعموه ساحراً، وزعموه رئيس عصابة من قطاع الطرق، بل زعموه قسماً رومانياً مغيظاً محنقاً أن لم ينتخب لكرسي البابوية... وحسبه بعضهم إلهاً زائفاً يقرب له عباده الضحايا البشرية. وإن جبر دنوجن نفسه، وهو رجل جد، ليدكر أن محمداً مات في نوبة سكر بين، وأن جسده وجد ملقى على كوم من

الروث وقد أكلت منه الخنازير، وذلك ليفسر السبب الذي من أجله حرم الخمر وحرّم لحم ذلك الحيوان... وذهبت الأغنيات الى حد أن جعلت محمداً صنماً من ذهب وجعلت المساجد الاسلامية برابي ملاءى بالتماثيل والصور!! وقد تحدث واضح أغنية أنطاكية حديث من رأى صنم « ماحوم » مصنوعاً من ذهب ومن فضة خالصين وقد جلس فوق فيل على مقعد من الفسيفساء. أما أغنية رولان التي تصور فرسان شارلمان يحطمون الأوثان الاسلامية فتزعم أن مسلمي الأندلس يعبدون ثالوثاً مكوناً من ترفاجان وماهوم وأبولون. وتحسب « قصة محمد » أن الاسلام يديح للمرأة تعدد الأزواج!

« وقد ظلت حياة الأحقاد والخرافات قوية مثبته بالحياة. فنذرودلف دلو هييم إلى وقتنا الحاضر أقام نيكولاد كيز، وفيفس، ومراثشي، وهو تنجر وبيلياندر وبريدو وغيرهم فوصفوا محمداً بأنه دجال، والاسلام بأنه مجموعة الهرطقات كلها وأنه من عمل الشيطان، والمسلمين بأنهم وحوش، والقرآن بأنه نسيج من السخافات. وقد كانوا يعتدرون عن الحديث الجسد في أمر هذا مبلغ سخافته. مع ذلك فان بيير المحترم (قنرابل) مؤلف أول رسالة غربية ضد الاسلام قد ترجم القرآن في القرن الثاني عشر إلى اللاتينية. وفي القرن الرابع عشر كان بيير باسكال من الذين توسعوا في الدراسات الاسلامية. وقد وصف إنوسان الثامن محمداً يوماً بأنه عدو المسيح. أما القرون الوسطى فلم تكن تحسب محمداً إلا هرطيقاً. وكان لريمون ليون في القرن الرابع عشر، ولغليوم بستيل في القرن السادس عشر، ولرولان وجانييه في القرن الثامن عشر، وللقسيس ديرجلى ولرينان في القرن التاسع عشر أحكام وآراء مختلفة... على أن الكونت بولنفلييه وشول وكوسان ديرسفال ودوزي وسبرنجر وبارتلي ساتلبير ودكاستري وكارليل وغيرهم يظهرون على وجه الاجمال إنصافاً للإسلام ونييه ويثشيدون في بعض الأحيان بهما. مع ذلك فان دروتي



يتحدث في سنة ١٨٧٦ عن محمد قائلا : « هذا الأعرابي المنافق القدر » كما طعن عليه فوستر من قبل ذلك في سنة ١٨٢٢ . وما يزال للإسلام حتى اليوم محاربون متحمسون . »

أرأيت هذا الحضيض الذي هوت إليه هذه الطائفة من كتاب الغرب؟ أرأيت إصرارهم ، رغم مر القرون ، على الضلال وعلى إثارة العداوة والبغضاء بين أبناء الانسانية؟! ومن هؤلاء من جاءوا في العصور التي نسميها عصور العلم والبحث والتفكير الحر وتقدير الاخاء بين الانسان والانسان . وبرغم أولئك المنصفين إلى حدٍّ ، ممن أشار إليهم درمنجم ، وهو منهم ، ومنهم من أقر بصدق إيمان محمد بالرسالة التي ألقى الله إليه ببلغها من طريق الوحي ، ومنهم من أشاد بعظمة محمد الروحية وبسمو خلقه ورفعة نفسه وجم فضائله ، ومن صور ذلك في أقوى أسلوب وأروعها — برغم ذلك ما يزال الغرب يوجه للإسلام ونيه أشد المطاعن ، وتبلغ منه الجرأة حتى يبيت المبشرين في أنحاء البلاد الاسلامية يذيعون مثالبهم الوضيعة ويحاولون صرف المسلمين عن دينهم إلى المسيحية .

يجب لذلك أن نبحت عن السبب الذي ترجع إليه هذه الخصومة الهوجاء وهذه الحرب العنيفة التي تثيرها المسيحية على الاسلام . وعندنا أن جهل الغرب بحقيقة الاسلام وبسيرة النبي في مقدمة ما يدعو إلى هذه الخصومة . والجهل لا ريب من أعقد أسباب الجود والتعصب وأشدّها استعصاء . ولقد تراكم هذا الجهل على مر القرون وقامت له في نفوس الأجيال تماثيل وأوثان يحتاج تحطيمها إلى قوة روحية كبرى كقوة الاسلام أول ظهوره . على أنا نحسب أن ثمة سبباً غير الجهل قد دفع أهل الغرب إلى هذا التعصب وإلى إثارة الحرب الضروس الشعواء التي أثاروها وبثرونها الوقت بعد الوقت على الاسلام وعلى المسلمين . وليس ينصرف ذهننا إلى ما قد يدور بالخطاير من

سبب الخصومة  
بين الاسلام  
والمسيحية

الجهل  
والتعصب

أقدار السياسة وحب الظفر بالشعوب لاستغلالها . فتلك في اعتقادنا نتيجة وايست سبباً لهذا التعصب المستعصى حتى على العلم وعلى بحوثه . أما السبب في رأينا فيرجع الى أن المسيحية وما تدعو اليه من الزهد في الحياة واعتزال العالم ومن العفو والمغفرة ومن المعاني النفسانية السامية ليست مما يلائم طبيعة الغرب الذي عاش ألوف السنين على دين تعدد الآلهة ، والذي يدعو مركزه الجغرافي الى حياة الكفاح لمغالبة الزمهرير والضنك وسوء الحال . فاذا قضت الظروف التاريخية عليه بأن يعتنق المسيحية فلا مفر له من أن يسبغ عليها ثوب الكفاح ، وأن يخرجها بذلك عن طبيعتها السمحة الجميلة ، وأن يفسد فيها هذا التناسق الروحي الذي يجعل منها حلقة في سلسلة الوحدة التي أتم الاسلام ، والتي تواخى بين الروح والجسد وتزواج بين العاطفة والعقل ، وتسلط الفرد والانسانية جميعاً في نظام الكون على أنهم بعض منه متسق وإياه في لانهاية الزمان والمكان . هذا في رأينا هو مرجع السبب في تعصب الغرب ومرجع السبب في موقفه من الاسلام ، هذا الموقف الذي تجافت الحبشة عنه حين احتتمى المسلمون بها أول ظهور النبي .

والى هذا السبب في رأيي يرجع إغراق الغربيين وغلوهم في التدين وفي الاحاد جميعاً إغراق تعصب وكفاح لا يعرف الهوادة ولا يعرف التسامح . واذا كان التاريخ قد عرف منهم قدّيسين احتدوا في حياتهم مثال السيد المسيح والحواريين ، فان التاريخ أيضاً قد عرف أن حياة أمم الغرب كانت أبداً حياة نضال وكفاح وحرور دامية باسم السياسة أو باسم الدين ، وعرف أن بابوات الكنيسة وأرباب السلاطة الزمنية كانوا في نزاع دائم يغالب بعضهم بعضاً ، فيتغلب هذا يوماً ويتغلب ذلك يوماً آخر . ولما كان الكفاح في القرن التاسع عشر قد تغلبت فيه السلاطة الزمنية ، حاولت هذه السلاطة أن تقضي على الحياة الروحية باسم العلم قضاء مبرماً عرفت اليوم بعد جهاد طويل أن لا سبيل اليه

المسيحية لا  
تلائم طبيعة  
الغرب